Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(4) ; March 2019

Artical History

Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
12. 1 .2019	25.2.2019	15.3.2019

اللّغة بين التّقعيد النّظريّ والاستعمال التّداوليّ

Arabic language between theoretical and deliberative use

باسلة موسى زعيتر

Bassela Moussa zaiter

ماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها، وقريباً مناقشة أطروحة الدكتوراه

MA in Arabic Language and Literature and soon discuss doctoral dissertation

معلّمة لغة عربيّة في ثانويّة بوداي الرسميّة

Arabic language teacher at the official Boday School

الملخص

يتناول هذا البحث الكلام على أهمّيّة اللّغة العربيّة، ودورها، والصّعوبات الّتي تواجهها، خصوصًا في ظلّ ما نشهده من تطوّر تكنولوجيّ جارف، ومحاولة إلغائها. إضافةً إلى نشأتها، ومراحل تطوّرها، إذ تجاوزت مرحلة التّقليد، لتُبتَكَرَ مصطلحات جديدة تواكب حاجات العصر، فلم تبقَ على وتيرة واحدة، إنّما أثبتت عبر المراحل والعصور المتلاحقة قدرتها على على احتواء الأحلام والتّطلّعات. أمّا المسألة الثّانية، فهي ناول موضوع اللّغة التّداوليّة وأنواعها. لقد تعدّدت االتّسميات الّتي أُطلِقت عليها، ومنها: الوظيفيّة، والاستعماليّة، والتّخاطبيّة، على حسب رأي الدّكتور جميل حمداوي، مستندًا إلى آراء متعدّدة. لكنّ تسمية التّداوليّة المقصديّة هي الأهمّ، لأنّها تقوم على دراسة العلامات مع مستعمليها، وترتكز على ثلاثة مكوّنات: التّركيب، والدّلالة، والوظيفة كما يقول شارل موريس. ونظرًا إلى أنواع اللّغة ووظيفتها التّواصليّة،

أجد أنّ لكلّ مجالٍ في الحياة لغته الخاصّة، ولهذا كانت اللّغة السّياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والنّفسيّة، وغيرها. وتبقى المسألة الثّالثة والأخيرة، وهي علاقة اللّغة بالواقع. ولكي نثبت تأثيره فيها والعكس، يجب العودة إلى نشأة اللّغة، فنجد حينها أنّها كانت في كلّ مرحلة تخلع عنها رداءها القديم، لترتدي حلّةً جديدةً، فقد صارت أكثر طواعيةً وفق ما تقتضيه الأحوال.

الكلمات المفتاحيّة: اللّغة، التّداوليّة، التّقليد، التّجديد.

Summary

This research deals with the importance of Arabic language and its role and difficulties, especially in light of what we are witnessing of technological development sweeping, and try to abolish it. In addition to its origins and stages of development, it has passed the stage of tradition, to create new terminology that meets the needs of the times. It did not remain at one pace, but through successive stages and epochs proved its ability to contain dreams and aspirations. The second issue dealt with the topic of deliberative language and its types, There are many names that were launched, including: functional, practical and communicative, according to Dr. JamilHamdawi, based on multiple views.But the naming of destination deliberation is the most important, because it is based on the study of signs in a relationship with its users, it is based on three components: structure, significance and function, says Charles Morris. Given the types of language and its communicative function, I find that every area of life has its own deliberative language;this is why we find the political, social, economic, psychological and other languages. The third and final issue remains the relationship of language to reality. In order to prove its impact, we must return to the origin of language and follow the stages of its development. Then we find that at every stage she takes off her old dress, to wear a new suit, it has become more voluntary as the circumstances dictate

Key words: language, deliberation, tradition,Renewal.

مدخل

لم يكن تناول موضوع اللّغة بمحاوره الثّلاثة الواردة في البحث، إلّا تأكيدًا على فعاليّتها، والامكانيّات الكبيرة الموجودة لديها. لكنّ المشكلة الكبرى تكمن عند مستخدميها، فقد انغلق بعضهم على قديمها، ورفضوا توسيع بؤرة النّظر في ما يتعلّق بها، الأمر الّذي أدّى إلى تحجيم أفكارهم، وقدرتهم على ابتكار أيّ جديد، فظلّوا تائهين في رحاب الماضي. بينما في الحقيقة، لو نظرنا إلى اللّغة بحدّ ذاتها، لوجدناها مطواعةً جدًّا، وتتكيّف مع حاجاتنا اليّوميّة، وتلبّيها بكلّ بساطةٍ، إن تعاملنا معها بصدقٍ ومحبّة، لأنّ اللّغة روح، تحوي آمالنا وأحلامنا، وتعبّر عن هواجسنا. إنّها سماء واسعة جدًّا، ولا حدود لها، وسهولٌ

خصبةٌ تمنحنا الكثير كلّما أوغلنا في تفاصيلها. فلماذا نتّهمها بالجمود والتّقوقع، بينما هي في الواقع بحرٌ لا نهاية له؟

إنّ الهدف الأساسيّ من هذا البحث، هو تبيان مكامن اللّغة في مراحل تطوّرها، من خلال تناول النّقاط الآتية،

-اللّغة بين التّقليد والتّجديد.

- اللّغة التّداوليّة: أنواعها وخصائصها.

- علاقة اللّغة بالواقع: التّأثير والتّأثّر.

١- اللّغة بين التّقليد والتّجديد:

أ- تعريف اللّغة:

لم يكن تعريف اللّغة موحّداً، فقد اختلفت الآراء حولها، ولم يتوصّل العلماء إلى تحديد تعريف واضحٍ وشاملٍ، وذلك نظراً إلى ارتباطها بالعلوم الأخرى، إذ لا يمكن فصلها عنها، أو تقديمها بتجرّد. وهنا سوف تُعرَض بعض التّعريفات المختلفة، تأكيداً على ذلك، فابن جنّي يقول بأنّها" أصواتٌ يعبّر بها كلّ قومٍ عن أغراضهم"[١]، ويعرّفها الدّكتور يوسف سيّد جمعة بأنّها "ظاهرة اجتماعيّة تستخدَم لتحقيق التّفاهم بين النّاس"[٢]، و"معنى موضوع في صوت أو نظام من الرّموز الصّوتيّة "[٣]. ويقول أوتويسبرسن أنّ اللّغة ليست في حقيقتها سوى نشاطٍ إنسانيٍّ يتمثّل من جانبٍ في مجهودٍ عضليٍّ يقوم به فردٌ من الأفراد، ومن جانبٍ آخر يتمثّل في عمليّةٍ إدراكيّةٍ ينفعل بها فرد أو أفرادٌ آخرون [٤].

نتوصّل من خلال ما عرضنا من تعريفات، وإن كان مختلفة، إلى أنّ اللّغة ليست منعزلةً عن عناصر الحياة الأخرى، فهي الوسيلة للتّعبير عن حاجات الإنسان، من متطلّبات ماديّة، أو مشاعر وعواطف، أو تعبير

[١] – أبو الفتح ابن جنّي، الخصائص، ج.١، تح.محمّد عبد النّجّار، ص٣٣.

[٢] – جمعة سيّد يوسف، سيكولوجيّة اللّغة والمرض العقليّ، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٠/١/٤٥م.، ص٥١.

[٣] – م.ن، ص ص ٥٦.

[٤] –عبد العزيز شرف، المستويات اللّغويّة في الاتّصال الاعلاميّ، المجلّة العربيّة للمعلومات، العدد الثّالث، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦٩.

عن الآراء والأفكار، فمن دونها لا يستطيع أن يعيش حياةً طبيعيّةً خاليةً من العوائق، إذ تتيح له أن يتجاوز المشكلات الّتي تعترضه، من خلال ترجمة نفسه في كلمات وعبارات. فاللّغة تمرّدٌ على المعطيات الطّبيعيّة المقدّمة، وطريقة ليثبت فيها الإنسان أنّه يمتلك الإمكانيّات المميّزة لتحقيق الرّيادة.

ب– نشأة اللّغة وتطوّرها:

مع أنّ المحاولات لاكتشاف نشأة اللّغة كانت جدّيّة وواضحة، إلّا أنّ الضّبابيّة ظلّت تغلّفها من جوانبها كافّةً، فلم يتّفق اللّغويّون العرب على تعريفٍ واحد، وبعد القراءات المتعدّدة، لوحظ الاتّفاق على أربع نظريّات عند اللّغويّين الغربيّين:

أوّلاً: نظريّة التّوقيف والإلهام: مفادها أنّ لغة الإنسان من عند اللّه سبحانه وتعالى، لا دخل للإنسان فيها، وهي توقيفيّة أوقفها اللّه عليه، واعتمد هؤلاء على الأدلّة النّقليّة في إثبات رأيهم، وهي أدلّة مقتبسة من الكتب المقدّسة.

ثانياً: نظريّة التّواضع والاصطلاح: وهي تعني أنّ أصل اللّغة تواضع، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء، فيضعون لكلّ شيء سمةً، ولفظاً يدلّ عليه، ويغني عن إحضاره أمام البصر.

ثالثاً: نظريّة الغريزة: أي أنّ الغريزة كانت تحمل كلّ فرد على التّعبير عن كلّ مدرك حسّيٍّ، أو معنويٍّ بكلمة خاصّةٍ به، لأنّ هذه الغريزة زُوِّد بها جميع أنواع النّوع الإنسانيّ.

رابعاً: نظريّة المحاكاة والتّقليد: أي أنّ اللّغة ما هي إلّا محاكاة وتقليد لأصوات الطّبيعة، وتُبنى هذه النّظريّة على مدى تأثّر الإنسان في النّطق بألفاظ البيئة الّتي تحيط به[٥].

لو نظرنا إلى كلّ ما تقدّم من دراسات لغويّة عربيّة وغربيّة، لوجدنا أنّ أيّا من النّظريّات المذكورة لا تلبّي الهدف المطلوب، فلا يمكن حصر نشأة اللّغة بواحدةٍ منها، إنّما يجب الجمع بينها. لقد علّم اللّه سبحانه وتعالى أدم الأسماء كلّها، كما كانت للإنسان البدائيّ أيضاً محاولات في ابتكار رموز وأشكال مختلفة، يتمكّن بوساطتها من التّواصل مع الآخرين سعيًا إلى تسهيل حياته. وكان للطّبيعة أيضاً تأثير في خطواته تلك، نتيجة سماعه أصواتها ومحاولة تقليدها تلقائيّاً، فالحاجة أمّ الاختراع، الأمر الّذي يدعم نظريّة الغريزة.

[٥] –حاتم علي الطّائيّ، مركز البحوث والدّراسات العلميّة، العدد السّادس، نيسان ٢٠٠٩، ص ١٩٥.

اللّغة إذاً وليدة عوامل مختلفة، ولا يمكن حصرها في نطاقٍ واحدٍ. لكنّ السّؤال الّذي لم أجد إجابةً عليه هو: إنّ اللّه سبحانه وتعالى علّم آدم الأسماء كلّها، يعني علّمه اللّغة، ومن المفترض أن يكون آدم قد علّمها أولاده بدوره. كيف لم تنتقل هذه اللّغة إلى الإنسان في العصور اللّاحقة؟ ولمَ لجأ هذا الإنسان فيما بعد إلى محاولات التّعبير عن نفسه بأساليب بسيطة، وأبوه في الأصل قد تعلّم جذور اللّغة من ربّه؟؟؟

ج- اللّغة العربيّة: تقليد أم تجديد:

لقد حازت اللّغة العربيّة اهتمام الدّارسين من عصور قديمة، باحثين في جوهرها عن سرّها المكنون، محاولين الخروج بنتائج مقنعة وافية عن هذه الكائن العجيب، الّذي تمكّن من المحافظة على دوره وفاعليّته على مدى

قرون طويلة، وما زال صامدًا إلى حدّ الآن، مع كلّ العوائق الّتي تولّدت له، بفعل عوامل مختلفة شهدها هذا العالم. والغريب أنّ أحدًا من الباحثين لم يخلص إلى نتائج حتميّة، إنّما ظلّ تحليله ضمن دائرة" الممكن والمحتمل". فاللّغويّ الكبير فرديناند دي سوسير، وبعد أبحاثٍ وجهودٍ مطوّلةٍ وشاقّةٍ، بقي متحيّرًا في تطوّر اللّغة عامّة، وهذا واضح في كتابه "علم اللّغة العامّ"، في نظريّته" الثّبوت والتّغيير في الإشارة"، ففي الوقت الّذي يظنّ كثير من النّاس أنّهم قادرون على التّغيير، نجده يلاحظ قواعد كثيرة تمنع ذلك، فلا يمكن فرض اللّغة من جيل إلى آخر كأيّ شيء آخر يمكن توارثه ببساطة، لكنّ الأمر يعود إلى أسباب متعدّدة، وهي:

١- "الطّبيعة الاعتباطيّة للإشارة، أي أنّ اللّغة تفتقر إلى الأساس الضّروريّ، والأرضيّة الصّلدة للمناقشة. إذن ليس من سببٍ يجعلنا نفضّل لفظة soeur (أخت) على sister، ochs (ثور) على boeuf وغيرها"[٦].

٢- كثرة الإشارات أمرٌ ضروريٌّ لجميع اللّغات: فالعدد الكبير للإشارات يقف في طريق التّغيير لأيّة لغة من اللّغات، لأنّها لا تُحصى[٧].

٣- "التّعقيد الشّديد الّذي يتميّز به النّظام: فالنّظام شيءٌ معقّدٌ لا يمكن فهمه إلّا بعد التّأمّل: والّذين يستخدمون النّظام كلّ يومٍ يجهلون أمره" [٨].

[٦] -فرديناند دي سوسير،علم اللّغة العامّ، تر. يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبيّ، بغداد، ١٩٨٥، ص ٩١.

[٧] -فرديناند دي سوسير، علم اللّغة العامّ، ص ٩٢.

[٨] -م ن.ن، ص. ن.

٤- "عدم الاكتراث الجماعيّ نحو التّغيير: فاللّغة أقلّ النّظم الاجتماعيّة خضوعاً لبادرة التّطوير. فهي تمتزج بحياة المجتمع، والمجتمع خاملٌ بطبعه، فهو أشدّ القوى محافظة"[٩].

لكنّه في نهاية كلامه، قال: "فاللّة لم تعد حرّة، لأنّ الزّمن يسمح للقوى الاجتماعيّة العاملة في اللّغة فقي أن تعمل عملها. وهذا يعود بنا إلى مبدأ الاستمراريّة، الّذي يلغي الحرّيّة. ولكنّ الاستمراريّة تنطوي بالضّرورة على التّغيير- على درجات مختلفة من التّغيير في العلاقة بين المدلول والدّال"[١٠].

وفي بحث آخر، نجد الدّكتور محمّد عبد الفتّاح العمراويّ يقول بطبيعيّة تطوّر اللّغة، و"اللّغة العربيّة شأنها شأن جميع اللّغات لا تثبت على حالٍ واحدةٍ، فهي تتطوّر ما دامت لغةً حيّةً، وما دامت تتداول بين أبنائها"[١١]. وعرّف التّطوّر اللّغويّ على أنّه "التّغيّر الّذي يطرأ على اللّغة في مختلف مستوياتها الصّوتيّة، والصّرفيّة، والنّحويّة، والمعجميّة، والدّلاليّة"[١٢]، ثمّ خصّ اللّغة العربيّة بثلاثة أنواع من التّطوّر: "الأوّل: سريع لا قيود تحكمه، وقد باللّهجات في أقطارنا العربيّة"، و"الثّاني: تطوّر بطيء له قيود تحكمه، وهو ما يحدث في لغتنا الفصحى الّتي نطلق عليها الآن"العربيّة المعاصرة""، والثّالث الّذي يمكن الحديث عنه هو"في حقيقته" تطوير" يقوم به المجمعيّون، يتحكّمون به في ظواهر اللّغة، ويبدو هذا القرار في كثير من قراراتهم الّتي تهدف إلى إحداث أقيسةٍ جديدةٍ في اللّغة، أو توسيع أقيسةٍ جديدةٍ"[١٣].

واعتمد العمراويّ في خلاصاته على أدلّة متعدّدة، سوف نقدّم شواهد منها، ولعلّ أبرزها الخطوات الّتي قام بها مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، نتيجة ما شاع من ظواهر في العربيّة المعاصرة الفصيحة:

"أوّلاً: الاتّساع في السّماع: ونركّز على ثلاثة مظاهر للاتّساع في السّماع، وهي:

أ.الإعتماد على الحديث النّبويّ: هناك عدد من الظّواهر الّتي شاعت في اللّغة المعاصرة ورفضها كثير من العلماء والباحثين، ولها وجود في الحديث النّبويّ، لذلك أصدر المجمع قراراً يجيز الاستشهاد بلغة

[٩] -م.ن، ص. ن.

[١٠] -م.ن، ص ٩٧.

[١١] -محمّد عبد الفتّاح العمراوي، تطوّر اللّغة العربيّة المعاصرة بين ضوابط القدماء وجهود المحدثين، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة السّلطان قابوس، ص ٥.

[١٢] -م.ن، ص. ن.

[١٣] -محمّد عبد الفتّاح العمراويّ، تطوّر اللّغة العربيّة المعاصرة بين ضوابط القدماء وجهود المحدثين، ص ٦.

الحديث الشّريف، كدخول "ال" التّعريف على العدد المضاف دون المضاف إليه: مثل: الخمسة كتب، وحذف "أن" المصدريّة قبل المضارع، كما ورد في البيت الشّعريّ: أريد أضحك للدّنيا فيمنعني أن عاقبتني على بعض ابتساماتي.

ب.الأخذ عن المولّدين: والمولّدون هنا هم القدماء الّذين جاؤوا بعد عصر الاستشهاد، وقد أجاز المجمع هذا الأخذ، بهدف تسويغ كثير من الظّواهر الشّائعة في اللّغة العربيّة المعاصرة، كوقوع ضمير الفصل بين"ما" أو"من" الاستفهاميّتين والمستفهم عنه مثل قولهم: ما هي الأسباب؟ ما هو رأيك؟، وتقديم"نفس" على ما هو في معنى المؤكّد مثل: فعلت نفس الشّيء.

ج.الأخذ عن المحدثين: والمحدثون هم من استعملوا اللّغة في العصر الحديث، ومعنى ذلك أن ينظر في لغة المحدثين بحثاً عن الظّواهر الشّائعة فيها، مثال: الاستعمال المحدث ل"حتّى" في مثل: لم أقرأ حتّى الصّحيفة – ما زارني حتّى المقرّبون. لقد المجمع هذا الأسلوب على تقدير"حتّى" عاطفة وقد حذف المعطوف عليه، وحذف المعطوف عليه شاذّ عند النّحاة، ولا يقاس عليه، لكنّ شيوع الأسلوب وإمكانيّة التّأويل وراء قبوله.

ثانياً: القياس على الظّواهر الشّاذّة: فقد رأى المجمع جواز الأخذ والقياس عليه في سبيل تسويغ هذه الظّواهر الشّائعة، إذ أجاز استعمال"أيّ" في أساليب شاعت في العربيّة المعاصرة، مثل قولهم: اشار أيّ كتاب(مضاف إلى نكرة)، واشتر أيّ الكتب(مضاف إلى معرفة)...، وقد ارتضت لجنة الأصول أن تكون"أيّ" في تلك الأساليب نعتاً لمنعوتٍ محذوفٍ، مع أنّ حذف المنعوت شاذٌّ ولا يُقاس عليه، والأمثلة كثيرة في هذا لمجال.

ثالثاً: التّخفّف من بعض الضّوابط والشّروط: أ.جواز التّخفّف من أكثر شروط اسم التّفضيل، كالتّخفّف من شرط تجرّد الفعل الثّلاثيّ، وفقاً لسيبويه والأخفش، وتشترط اللّجنة لجواز ذلك أمن اللّبس.

ب.جواز التّخفّف من شروط صوغ اسم الآلة: فقد أضاف المجمع صيغاً جديدة إلى الصّيغ القديمة لاسم الآلة، وهي: فعّالة، وفِعال، وفاعلة، وفاعول، بعد أن اعتمدوا قديماً على:مَفعل، ومَفعلة، ومِفعال فقط.

ج.جواز جمع مفعول على مفاعيل مطلقاً: كأن تجمع كلمة"مضمون" " مضامين"، بعد أن كانت تجمع على وزن"مفعولات"، مثلاً: "مضمون" تصير"مضمونات".

رابعاً: إنشاء أقيسة جديدة: وهذه الأقيسة قد تعتمد على وارد عن العرب، مثلاً:

أ.قياسيّة "فُعالة" للدّلالة على نفاية الأشياء، وتناثرها، وبقاياها.

ب. قياسيّة المصدر الصّناعيّ.

ج. إشتقاق"فَعَلَ" من العضو للدّلالة على إصابته.

د. جواز النّسب بالألف والنّون للتّعبير عن النّظريّة، أو النّزعة، أو الاتّجاه"[١٤].

لقد استند كلّ من اللّغوي فرديناند دي سوسير، والدّكتور محمّد عبد الفتّاح العمراويّ إلى أدلّة واضحة لإثبات رأييهما، فسوسير قال بأنّ اللّغة لا يمكن أن تتغيّر بسبب عوامل عدّة، واقتصر التّغيير عنده على تبدّل المدلول، فالكلمة ثابتة. أمّا العمراويّ فقد جزم بالتّغييرات الحاصلة فيها، من خلال ما قدّمه من حقائق في ما يتعلّق باللّغة العربيّة خاصّة، وأنا أرى أنّ اللّغة لا يمكن وضعها في سجنٍ مظلم، لأنّها وسيلة الإنسان الأولى والأخيرة للتّعبير عن نفسه، وإن اختلفت تعريفاتها، فالإنسان في تطوّر مستمرٍّ، ومن الطّبيعيّ جدًّا أن ترافقه لغته في هذا التّطوّر. واللّغة العربيّة بالذّات مطواعة جدًّا، إذ امتازت عن اللّغات الأخرى باشتقاقاتها، واتّساع دائرتها. إنّها كالطّفل ينمو تدريجيًّا، كلّما غذّيناه ورفدناه بآفاق واسعة، كلّما استطاع التّحليق عالياً في سماء الدّهشة والعطاء. ولعلّ من أبرز الأمثلة الواردة، ما نشهده من تطوّر في الألفاظ والحقول المعجميّة في الأدب العربيّ، فبعد أن ساد معجم الصّحراء، والقتال، وغيرها في الأدب الجاهليّ، نجد دخول حقول معجميّة جديدة ومختلفة، وغياب الحقول القديمة في الأدب الحديث، وهذا يُعَدُّ أكبر دليل على المسافات الّتي اجتازتها هذه اللّغة، وصولاً إلى ما هي عليه اليوم، فلماذا إذاً لا نطلقها من القوقعة الّتي أوجدناها لها، لننقذها من بؤرة الضّياع والتّقهقر، الّتي نتجت عن سوء الظّنّ بأنّها لا تستطيع أن تحتمل التّقدّم والتّطوّر؟؟؟

٢–اللّغة التّداوليّة: أنواعها وخصائصها:

أ–تعريف التّداوليّة: يبدو مصطلح "التّداوليّة" (pragmatique) على درجة من الغموض. إذ يقترن به، في اللّغة الفرنسيّة، المعنيان الآتيان: "محسوس" و " ملائم للحقيقة". أمّا في الانجليزيّة، فإنّ كلمة (pragmatic) تدلّ في الغالب على" ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقيّة"[١٥].

[١٤] –محمّد عبد الفتّاح العمراويّ، تطوّر اللّغة العربيّة المعاصرة بين ضوابط القدماء وجهود المحدثين، ص ٨–٩–١٠–١١–١٢–١٣–١٤.

وفي هذا الصّدد، سوف نذكر بعض التّعريفات العامّة للتّداوليّة:

-"التّداوليّة هي مجموعة من البحوث المنطقيّة اللّسانيّة(...)، وهي كذلك الدّراسة الّتي تُعنى باستعمال اللّغة، وتهتمّ بقضيّة التّلاؤم بين التّعابير الرّمزيّة، والسّياقات المرجعيّة، والمقاميّة، والحدثيّة، والبشريّة (الموسوعة الكونيّة).

-"إنّها تمثّل دراسة تهتمّ باللّغة في الخطاب، وتنظر في الوسميّات الخاصّة به، قصد تأكيد طابعه التّخاطبيّ ، وهو تعريف أتى به أ.م. ديلر، وف. ريكاناتي.

-" دراسة للّغة بوصفها ظاهرة خطابيّة، وتواصليّة، واجتماعيّة في الوقت ذاته ، وهذا التّعريف ل (ف. جاك).

-"هي الدّراسة أو التّخصّص الّذي يندرج ضمن اللّسانيّات، ويهتمّ أكثر باستعمال اللّغة في التّواصل (ل.سفز)" [١٦].

ب-أنواع التّداوليّة وخصائصها:

إنّ "تطبيق مفهوم التّداوليّة على االلّغة العربيّة سيسهم في وصفها، ورصد خصائصها، وتفسير ظواهرها الخطابيّة التّواصليّة "[١٧]، فهذه اللّغة شأنها شأن غيرها من اللّغات الطّبيعيّة، تشتمل على طائفة من الصّيغ والأدوات الّتي يستعملها المتكلّم للدّلالة على القوّة الإنجازيّة الّتي يريد تضمينَها كلامَه، كالتّقرير، والاستفهام، والتّمنّي...، فكان على طوائف من العلماء العرب، ولا سيّما البلاغيّين الدّارسين لعلم المعاني، أن يتعرّضوا للقوى المتضمّنة في القول، بغرض تحديد ما تقتضيه حال معيّنة، نزولًا عند قاعدة: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[١٨].

لا بدّ أوّلًا من الإشارة إلى نشأة الدّرس التّداوليّ المعاصر، فالفلسفة التّحليليّة تعدّ الينبوع المعرفيّ لأوّل مفهوم تداوليٍّ، وهو"الأفعال الكلاميّة"، إنّه يجسّد الخلفيّة المعرفيّة، والمحضن الفكريّ لنشوء هذه الظّاهرة

[١٥] -فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، تر. صابر الحباشة، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللّاذقيّة، ط١، ٢٠٠٧، ص ١٧.

[١٦] -فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ص ١٨-١٩.

[١٧] -مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص٦.

[١٨] -م.ن، ص. ن.

اللّغويّة، لأنّ الفلسفة التّحليليّة هي السّبب في نشوء اللّسانيّات التّداوليّة. لقد رأت أنّ أولى مهامّ الفلسفة هي البحث في اللّغة وتوضيحها، لذا جعلت اللّغة في رأس قائمة اهتماماتها، على أنّها أولى الأولويّات في أيّ مشروعٍ فلسفيٍّ يتوخّى فهم الكون ومشكلاته فهمًا صحيحًا. فجميع تيّارات الفلسفة التّحليليّة اجتمعت على أنّ فهم الإنسان نفسَه وعالمِه يرتكز في المقام الأوّل على اللّغة[١٩].

ولعلّ ما يفيدنا في دراستنا هو التّيّار الثّالث من هذه الفلسفة "فلسفة اللّغة العاديّة"، الّذي أسّسه الفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين، إذ راح يطوّر فلسفته الجديدة الّتي توصي بمراعاة الجانب الاستعماليّ في اللّغة، فالاستعمال هو الّذي يكسبُ تعليم اللّغة واستخدامها. ومعظم الدّارسين يقرّ بأنّ قضيّة التّداوليّة هي "إيجاد " القوانين الكلّيّة

للاستعمال اللّغويّ، وتصير التّداوليّة جديرة بأن تُسَمَّى"علم الاستعمال اللّغويّ "[٢٠]. لأنّ دراسة استعمال اللّغة لا تنحصر ضمن الكينونة اللّغويّة بمعناها البنيويّ الضّيّق، وإنّما يتجاوزها إلى أحوال الاستعمال في الطّبقات المقاميّة المختلفة، حسب أغراض المتكلّمين، وأحوال المخاطَبين[٢١].

أمّا أبرز المفاهيم التّداوليّة المعاصرة، فتقوم على مفاهيم عديدة يتناولها الدّارسون المعاصرون، وهي: الفعل الكلاميّ، والقصديّة، والاستلزام الحواريّ، ومتضمّنات القول، ونظريّة الملاءمة. وسوف نكتفي هنا بعرض تعريفاتها سريعًا.

أ_ متضمّنات القول هي مفهوم إجرائيّ يتعلّق برصد جملة من الظّواهر المتعلّقة بجوانب ضمنيّة وخفيّة من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامّة، كسياق الحال وغيره، وهنا نقدّم مثالًا: ففي الملفوظ: أغلق النّافذة، وفي الملفوظ: لا تغلق النّافذة، نجد خلفيّة افتراض مسبق، وهو أنّ النّافذة مفتوحة.

ب_ الاستلزام الحواريّ يشير إلى تضمّن الحوار أحيانًا معنيين مختلفين في الوقت ذاته، وذلك يتّضح من خلال الحوار، كأن يسأل أستاذ: هل الطّالب(ج) مستعدّ لمتابعة دراسته الجامعيّة في قسم الفلسفة؟ فيجيبه أستاذ آخر: إنّ الطّالب(ج) لاعب كرة ممتاز. وهنا لاحظ الفيلسوف غرايس أنّ للكلام معنيين، أحدهما

[١٩] –م.ن، ص ٢٠–٢١.

[٢٠] –مسعود صحراويّ، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص ٢٤–٢٥.

[٢١] –م.ن، ص٢٨.

حرفيّ وهو أنّ الطّالب من لاعبي كرة القدم الممتازين، والآحر استلزاميّ، وهو أنّ الطّالب ليس مستعدًّا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة.

ج_ وبالانتقال إلى نظريّة الملاءمة، نجد أنّها تتميّز بتصوّرها للسّياق، فلم يعد شيء معطى نهائيًّا أو محدّدًا قبل عمليّة الفهم، إنّما يُبنى تبعًا لتوالي الأقوال.

د_ الفعل الكلاميّ أصبح نواة مركزيّة في الكثير من الأعمال التّداوليّة. وفحواه أنّ كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليٍّ دلاليٍّ إنجازيٍّ تأثيريٍّ، إضافةً إلى أنّه يُعَدُّ نشاطًا مادّيًّا نحويًّا يتوسّل أفعالًا قوليّة لتحقيق أغراض إنجازيّة، وغايات تأثيريّة تخصّ ردود فعل المتلقّي(كالرّفض والقبول). ومن ثمّ فهو يطمح إلى أن يكون فعلًا تأثيريًّا، أي ذا تأثير في المخاطَب اجتماعيًّا، أو مؤسّساتيًّا، ومن ثمّ إنجاز شيء ما[٢٢].

وقد توصّل أوستين إلى تقسيم للفعل الكلاميّ:

١_ فعل القول: ويراد به "إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحويّ سليم وذات دلالة"[٢٣]. فمثلًا عند قولنا:

_ إنّها ستمطر، يمكن أن يُفهم معنى الجملة، ومع ذلك لا ندري أهي: إخبار ب"أنّها ستمطر"، أم تحذير من "عواقب الخروج في الرّحلة"، أم " أمر بحمل مظلّة"، أم غير ذلك...إلّا بالرّجوع إلى قرائن السّياق لتحديد "قصد" المتكلّم، أو"غرضه" من الكلام.

٢_ الفعل المتضمّن في القول: وهو الفعل الإنجازيّ الحقيقيّ، أي أنّه عمل يُنجَز بقول ما.

٣_ الفعل النّاتج عن القول: ويرى أوستين أنّه مع القيام بفعل القول، وما يصحبه من فعل متضمّن في القول (القوّة) [٢٤].

ويشير مسعود صحراوي إلى أنّ ظاهرة" الأفعال الكلاميّة " تندرج ضمن الظّاهرة الأسلوبيّة المعنونة ب " الخبر والإنشاء "[٢٥]، ولعلّ التّعريفات المتعدّدة، وعدم الاستقرار على مفاهيم ثابتة في هذا

[٢٢] –مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص٣٠-٣١-٣٣-٣٦-٤٠.

[٢٣] - Austin, Quand dire c´est faire, Paris, Le Seuil, 1970, p, 109

[٢٤] –مسعود صحراويّ، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص ٤٠-٤١.

[٢٥] –م.ن ، ص٤٩.

المجال، وكثرة الدّراسات حوله، تعدُّ خير دليل على عدم ثبات اللّغة تداوليًّا، بل هي في تطوّرٍ مستمرٍّ. ومن أبرز الأمثلة الّتي يمكن تقديمها ما نشهده اليوم من تداول ألفاظ في الميادين السّياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، وغيرها، إذ يركّز مضمونها على المتلقّي، وقصديّة هذه الألفاظ، فالبلاغة العربيّة انصبّت اهتماماتها على الخطاب الّذي يحكمه الوعي والقصد، كما تهتمّ بالنّصّ الموجّه إلى الآخرين، متّخذًا من ذلك المتلقّي عنصرًا مهمًّا في خطابه. وتدعو البلاغة إلى إعادة النّظر في مفهوم اللّغة، على أنّها ممارسة اجتماعيّة ، وجزء من ذلك المجتمع[٢٦]. فالخطابة لا تطمح إلى تحقيق جمال القول بشكل مطلق، بل تلتحم بالظّرف التّاريخيّ، وظروف المتلقّي، وما يمليه من مؤثّرات اجتماعيّة ونفسيّة لأحوال السّامعين[٢٧].

من خلال ما عُرِضَ، يمكن الاستنتاج أنّ وظيفة اللّغة في الحياة هي ما أدّى إلى ظهور مفهوم " التّداوليّة "، لما يفرضه الواقع من إعادة النّظر في دور هذه اللّغة، وأهمّيّتها، ومدى ليونتها، وقدرتها على تلبية الحاجات الّتي تتبدّل مع العصور المتلاحقة. ومن هنا، لا بدّ من الاعتراف بأنّها ذات آفاق واسعة، وتستطيع أن تحتوي أفكارنا مهما بَعُد مداها، وتتيح لنا الغوص في التّفاصيل الصّغيرة، لأنّ سياقات الحياة مختلفة ومتنوّعة، والظّروف متبدّلة، والتّأويلات كثيرة ولا محدودة، وطريقة الفهم وكيفيّته تتعدّد بتعدّد الأذهان على وجه هذه الأرض. لقد حقّق العلماء-عربًا وغربيّين-تدريجيًّا نتائج جيّدة وفاعلة في أثناء محاولاتهم الخروج بقواعد وخلاصات ثابتة، وإن كان الغرب أكثر ريادةً في هذا المجال، لكنّ ذلك لا يعني أبدًا أنّ المسيرة توقّفت هنا، لأنّنا ما زلنا في تحرّك مستمر، ومن الطّبيعيّ جدًّا في هذه الحال أن تبقى اللّغة في حركتها الدّيناميكيّة، إذ لا يمكن فرض القيود عليها، إنّها ملك لنا جميعًا، ومن حقّنا أن نطلقها في التّعبير عن أنفسنا، لذا يتعذّر القول بالثّبات في هذا المجال.

٣_علاقة اللّغة بالواقع: التّأثير والتّأثّر:

انطلاقًا ممّا عولج في النّقطتين(١و٢)، نتوصّل إلى أنّ اللّغة ترتبط ارتباطًا أساسيًّا بالواقع، فتؤثّر فيه وتتأثّر به، إذ لا يمكن تناول تطوّر اللّغة، وخصوصًا اللّغة التّداوليّة بمعزل عن الواقع الّذي نمت فيه. ولا بدّ من الإشارة في هذا المجال إلى نقاط متعدّدة تربطهما ببعضهما بعضًا، من النّاحية الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والثّقافيّة.

[٢٦] – شريفي نعيمة و شتواني ليندة، استراتيجيّة التّواصل في الخطاب السّياسيّ بين التّصريح والتّلميح، جامعة عبد الرّحمن ميرة"بجاية"، ٢٠١٢-٢٠١٣، ص٧٧.

[٢٧] – منى فهمي محمّد غيطاس، الخطابة والتّداوليّة نحو أداة إجرائيّة لتلقّي النّصّ الخطابيّ، الدّراية، عدد١٥، القاهرة، لا ت.، ص١٨.

فعلى الصّعيد الاجتماعيّ، تُدرَس الطّرائق الّتي تتفاعل بها اللّغة مع المجتمع، والطّرائق الّتي تتغيّر بها البنية اللّغويّة استجابةً لوظائفها الاجتماعيّة، من خلال تحديد القوانين العامّة الّتي تتحكّم في الاستعمال الفعليّ للّغة في مجتمع معيّن، أو في جميع المجتمعات(٢٨). وقد أكّد الدّارسون علاقةَ اللّغة بالمجتمع من منطلق علم اللّغة الاجتماعيّ، أنّ اللّغة الّتي تتبع فيها الصّفةُ الموصوفَ، كما هو موجود في اللّغتين العربيّة والفرنسيّة، تدلّ على أنّ المجتمعات الّتي تتحدّث بهذا النّوع من اللّغة تستخدم الطّريقة الاستنتاجيّة في التّفكير، بينما اللّغة الّتي تسبق فيها الصّفة اسم الموصوف، تدلّ على أنّ المجتمع يستخدم الطّريقة الاستقرائيّة في التّفكير(٢٩). من هنا نفهم سبب اختلاف مستوى اللّغة في المجتمع الواحد باختلاف الفئات العمريّة، والظّروف المحيطة، والمستوى الفكريّ عند الجماعات، لأنّ اللّغة تعدُّ مترجمًا حقيقيًّا للطّبيعة الاجتماعيّة، والبنية الاجتماعيّة تؤثّر في البنية اللّغويّة، فالعلاقة بينهما متبادلة، وتظهر هذه العلاقة من خلال أنّ اختلاف الفئة العمريّة يؤثّر في أسلوب اللّغة المستخدمة، إضافةً إلى مستوى الطّبقة الاجتماعيّة، وطبيعة تفكيرها، لذا نجد أبناء الطّبقة الفقيرة مثلًا يتداولون مصطلحاتٍ تتلاءم وواقعهم ، والبرجوازيّون يعبّرون عن نمطهم الفعليّ اليوميّ، إذ يكون تمثيلها في نظم يشترك في اتّباعها المجتمع، ويتّخذها أفراده أساسًا لتنظيم حياتهم الجماعيّة، وتنسيق علاقاتهم(٣٠)، فبواسطتها يتواصل النّاس فيما بينهم ويتعارفون.

وفي الجانب السّياسيّ، نلاحظ، وخصوصًا في المرحلة الرّاهنة، كيفيّة توظيف اللّغة في خدمة الحياة السّياسيّة، والغايات المرجوّة منها، وهذا يستوجب استخدام مصطلحات تناسب الوضع، إمّا للتّحريض والفتنة، وإمّا للتّوعية والتّهدئة، فالأمر يتحدّد من خلال لهجة الخطاب المستخدمة. والجدير ذكره ارتباط هذا الجانب بالآخر الاجتماعيّ، لأنّ السّياسة في صميمها جزء من الحياة الاجتماعيّة، ومن الصّعب جدًّا فصلها عنها.

أمّا على الصّعيد الثّقافي، فيرى سماتس أنّ اللّغة هي الّتي ولّدت الهويّة(٣١)، وهي الوعاء الحافظ لتاريخ الإنسان وتراثه(٣٢). هذان الرّأيان صحيحان، لأنّ الإنسان تتحدّد هويّته انطلاقًا من لغته، لأنّها تمنح

---

٢٨ – نايف خرما، أضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة، عالم المعرفة، عدد٩، ١٩٧٨الكويت، ص١٧٠.

٢٩ – نايف خرما، أضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة، ص١٨٠.

٣٠ –عزّ الدّين صحراويّ، اللّغة العربيّة في الجزائر: التّاريخ والهويّة، مجلّة كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، عدد ٥، ٢٠٠٩ ، ص٣٣.

٣١ –جون جوزيف، اللّغة والهويّة–قوميّة، إثنيّة، دينيّة–، عالم المعرفة، عدد ٣٤٢، تر.عبد النّور خزاقي، الكويت، ٢٠٠٧، ص١٧.

الجماعات خصائص تميّزهم عن جماعات أخرى، ولهذا يجب علينا الاهتمام بلغتنا، لأنّها تعبّر عن انتمائنا، وتحفظ كرامتنا من الذّلّ والانقياد خلف متاهات النّهاية الحتميّة، فالتبرّؤ من اللّغة الأمّ يعني نهاية حقيقيّة لوجودنا الفعليّ، الوجود الّذي نستطيع من خلاله أن نقول: نحن هنا، في صلب هذا الكون الواسع، ولنا دورنا الّذي نؤدّيه، وصوتنا الّذي نوصله إلى كلّ أصقاع الأرض. هذه الهويّة توحّد انتماءنا، وثقافتنا العامّة، مع وجود تفرّعات مختلفة باختلاف المجتمعات والبيئات، فالثّقافة تعني أن تؤسّس جماعة بشريّة معيّنة طريقةً لحياتها، وتكون هذه الطّريقة مقبولة ومعترفًا بها بصورة عامّة، من ملبس، ومأكل،وآداب السّلوك، ومعتقدات، وتوصف بأنّها ثقافتهم، فلا ثقافة من دون لغة، واللّغة تؤثّر في طرق استعمالها، لذا العلاقة بينهما هي علاقة تأثّر وتأثير، ولا يمكن الفصل بينهما.

اللّغة اعتمادًا على ما عرضنا، ليست منعزلة عن الواقع، والواقع بأشكاله كافّة لا يمكن إلّا أن لا يكون مسرحًا للّغة، تظهر فيه في جميع مجالاته، لتسهّل حركة الإنسان، وتمنحه فخر الهويّة والانتماء، ويثبت عبرها تميّزه في شتّى المجالات، فهو من خلالها يعطي نفسه فرصة إثبات كفاءته ثقافيًّا، واجتماعيًّا، وسياسيًّا، وبقدر إتقانه إيّاها، يصبح الأجدر بالبقاء الحقيقيّ الّذي يظهر في كلّ خطوةٍ يخطوها على درب النّجاح والتّميّز.

خاتمة البحث:

اللّغة الّتي شهدت تطوّرات كثيرة على مرّ التّاريخ، وهنا نقصد اللّغة العربيّة، لا يجب أن نسلّمها إلى المجهول، أو ندعها تتخبّط وحيدة في ساحات الصّراع لتحافظ على مكانتها الّتي كانت، وريادتها الّتي أدهشت العالم زمنًا، لأنّ إيماننا بها هو ما يجعلها تواجه التّحدّيات المتتالية، ونحن لا كينونة لنا من دون لغتنا، إنّها هويّتنا. وما تعانيه حاليًّا من حربٍ ثقافيّةٍ ضدّها، بعد اجتياح العولمة العالم، واعتماد لغة النّتّ في التّواصل بدل اللّغة العربيّة عند أبنائها، يستوجب علينا إعلان الطوارئ لإنقاذها من الوقوع في الهاوية، فوقوعها يعني وقوعنا، ولا قيمة لنا إن فقدناها، ولا حجّة تُذكَر عن قصورها، لأنّ القصور ليس فيها بل فينا.

[٣٢] –نور الدّين صدار، دور العربيّة في الحفاظ على مقوّمات الهويّة القوميّة وكسب رهانات وتحدّيات العولمة، كلّيّة الآداب واللّغات والعلوم الاجتماعيّة والانسانيّة، الجزائر، لا ت.، ص٧.

قائمة المصادر والمراجع:

-إبن جنّي، الخصائص، ج.١، تح.محمّد عبد النّجّار.

-بلانشيه فيليب، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، تر.صابر الحباشة، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، ط١، ٢٠٠٧.

-جوزيف جون، اللّغة والهويّة-قوميّة، إثنيّة، دينيّة-،عالم المعرفة، عدد٣٤٢، تر.عبد النّور خزاقي، الكويت، ٢٠٠٧.

-خرما نايف، أضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة، عالم المعرفة، عدد٩، الكويت، ١٩٧٨.

-دي سوسير فرديناند، علم اللّغة العامّ، تر.يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطلبيّ، بغداد، ١٩٨٥.

-شرف عبد العزيز، المستويات اللّغويّة في الاتّصال الإعلاميّ، المجلّة العربيّة للمعلومات، العدد الثّالث، القاهرة، ١٩٧٩.

-صحراوي عزّ الدّين،اللّغة العربيّة في الجزائر: التّاريخ والهويّة،مجلّة كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، عدد ٥، ٢٠٠٩.

-صحراوي مسعود، التّداوليّة عند العلماء العرب، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠٥.

-صدار نور الدّين، دور العربيّة في الحفاظ على مقوّمات الهويّة القوميّة وكسب رهانات وتحدّيات العولمة، كلّيّة الآداب والعلوم الاجتماعيّة والانسانيّة، الجزائر، لات.، ص٧.

-الطّائي حاتم علو، مركز البحوث والدّراسات العلميّة، العدد السّادس، نيسان، ٢٠٠٩.

-العمراويّ محمّد عبد الفتّاح، تطوّر اللّغة العربيّة المعاصرة بين ضوابط القدماء وجهود المحدثين، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة السّلطان قابوس، لات.

-غيطاس منى فهمي محمّد، الخطابة والتّداوليّة نحو أداة إجرائيّة لتلقّي النّصّ الخطابيّ، الدّراية، عدد١٥، القاهرة، لات.

-ليندة شتواني و نعيمة شريفي، إستراتيجيّة التّواصل في الخطاب السّياسيّ بين التّصريح والتّلميح، جامعة عبد الرّحمن ميرة"بجاية"، ٢٠١٢-٢٠١٣.

-يوسف جمعو سيّد، سيكولوجيّة اللّغة والمرض العقليّ، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٠/١/٤٥.

- Austin, Quand dire c´est faire, Paris, Le Seuil, 1970.